أنا وجدّي

- أنا وجدّي.. (نفحات من عبق الأيّام الخوالي)
- رواية
- الطبعة الأولى – نيسان/أبريل ٢٠١٤م، جمادى الآخرة ١٤٣٥ هـ
- عدد النسخ (١٠٠٠) نسخة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الناشر:

دار الوعي العربي – غازي سعيد العايد - حلب

محمّد بن يوسف كرزون

أنا وجدّي

(نفحات من عبق الأيّام الخوالي)

(رواية)

دار الوعي العربي - حلب

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أرواح أولئكَ الأجداد العظماء

الذين أسّسوا.. وتعبوا..

فقدّموا لنا أنصع حضارة

في تاريخ البشريّة

والذين حمّلونا شعلة التقوى والعلم والعرفان والحريّة والكرامة

أهدي كتابي هذا

محمّد

كرسي جدّي

كرسيّ جدّي مرغوب فيه من الصغار، لا أدري لماذا، مرغوب فيه من كلّ أحفاده، وأسباطه.. يأتون إلى بيت جدّي، وأوّل ما يخطر لهم هو الجلوس على ذاك الكرسيّ العتيق. مسند هذا الكرسيّ الأيمن مكسور، وقد ربطه جدّي بقطعة قماش، قال له عمّي الكبيرُ مرّة: «اسمح لي يا أبي أن آخذ هذا الكرسيّ إلى النجّار، ليصنع له مسنداً جديداً، ويدهنه، ليعود جديداً». ثار جدّي، واحمرّ وجهه، ولكنّه

لم يقل لعمّي سوى: لا يا بني، هو يعجبني هكذا، هذا الكرسيّ سليم، اجلسْ عليه تَجِدْ كم هو متين!

رائحة الخشب في كرسيّ جدّي لا تشبه أيّ رائحة، ومع ذلك نحبّها، ربّما لأنّها رائحة كرسي جدّنا. وقاعدته المجدولة من القش العتيق تظهر عليها التجاعيد كما تظهر على جدّي، وعندما يرتمي أحدنا - نحن الأولاد - بقوّة فوق الكرسي يتناثر من تحته غبار ممزوج بقطع صغيرة من القشّ، ومع ذلك لا ينتهي منه.. كأنّ هذا القشّ لا يريد أن ينتهي مادام جدّي حيّاً.

نحن الصغار نحبّه لأنّ جدّي عندما يعتليه، يعني ذلك أنّ مزاجَهُ معتدلٌ وأنّه سيقصّ علينا واحدة من قصصه الكثيرة المحبّبّة، لقد اعتاد جدّي ألّا يقصّ علينا

حكاياته من على مقعد آخر، كأنّ القصص مخبّأة في هذا الكرسي، وكأنّ جدّي يقرؤها من رائحته الساحرة.

أعمامي وعمّاتي لا يرغبون في الكرسي، ولا يعيرونه أيّ انتباه، هم يفرحون بنا عندما نتحلّق حول جدّي وآذاننا مُصْغية لما سيقصّ علينا، يفرحون لصمتنا وهدوئنا، بعدما نكون قد هجرنا الكُرَةَ وصرنا صامتين كفينا الكبار - أقصد عمّاتنا وأعمامنا - خيرنا وشرّنا. وأمّا نحن فنفرح للحكايات التي هي أجمل من كلّ برامج التلفزة الملوّنة. يبدأ جدّي حكاياته بصوت خافت، ولكنه واضح النبرات، البعيدون منّا عن الكرسيّ يرجونه:

- «يا جدّي ارفع صوتك قليلاً.. قليلاً يا جدّو..».

جدّي لا يردّ عليهم في طلباتهم الأولى، ثمّ عندما يراهم يكثرون من الإلحاح يقول لهم:

- «أنتم بحركاتكم هذه تصدرون ضجيجاً يبعد عنكم صوتي، اهدؤوا قليلاً، وستسمعون صوتي جيّداً».

يعود الصمت، وتهدأ الحركات، ويرفع جدّي من صوته قليلاً، ونتابع حكايته.

حكايات جدّي كثيرة، ولكنّنا سمعنا أغلبها أكثر من مرّة، مثلاً حكاية (الستّ بدور) سمعناها عشرات المرّات، ومع ذلك نُحِسُّها لذيذة على أسماعنا كلّما سمعناها من جديد.

يقول جدّي:

- «ألا تملّون من سماع الحكاية أكثر من مرّة ؟».

فنكاد نجيب بصوت واحد:

- «لا.. لا.. لا..»!!

فيقول:

- «اليوم سأسمعكم قصّة جديدة، وأخرى قديمة من اللواتي تعرفونها، فبأيّ قصّة أبدأ ؟».

ويسمع رغباتنا جميعاً بأنّنا نريد القديمة أوّلاً، ولا سيّما إذا خطر على بالنا عنوان قصّة من قصصه المحبّبة.

يبتسم جدّي، ويقول:

- «ولكنّ الجديدة أجمل!».

يرى استغراباً على وجوهنا وانتظاراً وترقّباً لبدء حكايته الأولى.

❁ ❁ ❁

أحياناً أتسلّل إلى الغرفة التي يجتمع فيها عمّاتي وأعمامي، أسمع من بعيد، قبل أن

أصل، أصواتهم العالية، المتداخلة مع بعضها، أعمامي الأربعة وأبي، وعمّاتي الثلاث، كلّ اثنين منهم يجمعهما حديث، وكل واحد منهم يريد أن يتحدّث أكثر، أدخل الغرفة، أجلس قرب أبي، يمتدّ وجودي مدّة طويلة ثمّ أنسحب من جانبه، دون أن ينتبه إليّ، أعود إلى حكاية جدّي، التي أكون قد استظهرْتُها لكثرة ما سمعتها، ومع ذلك أفرح كثيراً عندما أسمعها من جديد بصوت جدّي.

❁ ❁ ❁

مرّة حاول أبي أن يستفيد من حبّنا لجدّي، فوضع آلة تسجيل قرب الكرسيّ، ثمّ بعد أسبوع، ونحن في بيتنا طلب منّا أنا وإخوتي أن نهدأ ونتحلّق حوله ليسمعنا حكاية بصوت جدّي، كان الصوت واضحاً، والآلة ممتازة، ومع ذلك لم نمكث سوى لحظات، لا

الكرسيّ هنا، ولا وجه جدّي البشوش بيننا، ولا سكاكر جدّي بين أيدينا، فقد اعتاد جدّي أن يوزّعها علينا مع بداية كلّ جلسة حكايات، نمسك القطعة منها، نقبض عليها، تتعرّق أيدينا، ولا يفكّر أحد منّا بوضعها في فمه، إلّا الصغار، وأظنّ أنّ جدّي كان يقصدهم بها، أمّا أنا، فمنذ أن صار عمري خمس سنوات لم تعد تغريني هذه القطعة، فكيف وأنا اليوم ابن سبع ؟ في النهاية قام أخي الكبير، فأقفل آلة التسجيل بهدوء، وكأنّه قد لَمَس الملَ لدينا جميعاً، وأدرك أبي أنّه لم يستطع إدهاشنا.

ومع كلّ ذلك لم يفكّر أبي بكرسي جدّي، ولم يقل لنا مرّة إنّه بعد موت جدّي سيأخذ الكرسي له، أو سيتركه لأحد أعمامي.. مع أنّ أبي يفكر ماذا سيفعل بعد موت جدّي!

وكم من مرّة سمعتُ فيها إحدى عمّاتي تريد أن تبيع هذا الكرسيّ - بعد العمر الطويل - لأوّل مناد في الطرقات، كنتُ أضجر منها، وأعبّر لأبي عن غضبي منها، ولكنّه لم يكن يعيرني أي انتباه، وكأنّ هذا الكرسيّ لا يعنيه، وكأنّه ليس كرسي والده..

أحياناً أشعر برغبة كبيرة في الجلوس على ذلك الكرسي، كنتُ من قبل أقبل أن يجلسني جدّي في حجره، ولكنّني - فيما بعد - عندما كبرتُ لم أعد أكتفي بذلك، بل أتحيّن الفرص لأجلس عليه، أحاول أن أعيد قصّ بعض الحكايات..

مرّة كان جدّي نائماً في قيلولته المعتادة، أخذتُ نفسي، وتسلّلت إلى الغرفة التي فيها الكرسي، صعدتُ عليه، وبدأتُ أحكي كما يحكي جدّي، حكيت ثلاث حكايات، ثلاث

حكايات ولم أملّ، لم أخترها من الطوال، بل القصار، الكرسيّ كان واسعاً، واسعاً جدّاً، لم أستطع أن أسند ظهري وأمدّد رجليّ في نفس الوقت، ولكنّني استطعت أن أجد حيلة، عندما وضعتُ وسادة عريضة خلف ظهري، أمّا المسندان، فلم أستطع أن أسند يديّ في وقت واحد عليهما معاً، كنتُ أسند اليمنى مرّة، ثمّ اليسرى.. أختي الكبيرة كانت تختفي وراء النافذة وتراقبني، ثمّ راحت - دون أن أنتبه - تستدعي جدّي وأبي وإحدى عمّاتي، شعرتُ بخجل كبير عندما فتحوا الباب عليّ بهدوء، ودخلوا جميعاً، ثمّ زال خجلي عندما أوقفني جدّي فوق الكرسيّ وعانقني، عانقني عناقاً طويلاً، وعندما انتهى قال لي:

- «يا بنيّ، من يحفظ حكاياتي مثلك، ويفهمها، فسيكون في المستقبل رجلاً فهيماَ

بمعنى الكلمة».

فرحتُ كثيراً، ولكنّني لم أستطع أن ألبّي طلب جدّي في أن أحكي حكاية وهو أمامي.

صارت كلمة المستقبل تهمّني كثيراً، صرتُ أسأل أمّي عنها، وأسأل أبي، لم أسأل أبي كثيراً لأنّه كان مشغولاً، ولا يحبّ أسئلة أولاده كثيراً، يريدنا في حضوره أن نسكت، ويريدنا أن نهدأ، يقول:

كان جدّي - فيما يروي عمّي الأصغر - يتزيّن صباح كلّ عيد بأجمل الثياب، ويضع العمامة على رأسه، ويطلب من جدّتي أن توقظ أولادهما، ثمّ يتربّع على هذا الكرسي، ويجلس أولاده حوله، مكوّنين نصف دائرة، فيتلو دعاءً قصيراً، ثمّ يبدأ بنصح أولاده بضرورة المحبّة والتسامح والكرم... بعدها

يوزّع عليهم (العيديّة) مبتدئاً بالأصغر فالأكبر...

حاول جدّي أن يبقى على هذه العادة، ولكنّ أبي وأعمامي لم يعينوه على ذلك، ففي أوّل أيّام العيد لا يصل أعمامي وعمّاتي بأولادهم إلى البيت الكبير، بيت جدّي، إلاّ بعد العصر، وجدّي لا يحبّ أن يبدأ عملاً طيّباً في وقت متأخّر، يحبّ الوقت المبكر. وكأنّي سمعت من عمّي أنّ جدّي لم يعد معه مال يكفي لتوزيع عيديّات على كلّ أحفاده وأسباطه، وهو لا يطلب من أولاده المال، إذ لم يعتدْ جدّي على الأخذ، هو معتاد دائماً على العطاء، لقد ترك العمل في مهنته منذ سنين بعيدة، ولكنّه حتّى الآن ليس بحاجة إلى عطاءات من أولاده. يقول دائماً إنّ الله يعامله بالبركة... وما زال عنده الكثير من فضل الله.

أمّا أعمامي فلم تعد تعجبهم عادة (العيديّات)، لقد لملموا كلّ عيديات جدي وهم صغار، ولكنّهم لا يريدون أن يعطونا الآنَ شيئاً منها.

ما يزال جدّي محتفظاً بالعباءة التي كانت تعتني له بها جدّتي - رحمها الله - ولكنّه لا يلبسها كثيراً، كي لا تبلى، ونعرف أنّه في أجمل أيّامه وأسعد أوقاته عندما يلبسها، ويضع أيضاً الشال الصوفي، الذي نسجته جدّتي أيضاً من وبر الجمل. نحن لا نعرف جدّتي، فقد ماتت – رحمها الله - منذ خمس عشرة سنة أو أكثر - كما يقول أبي - ومع ذلك أرى جدّي يهتمّ بأشيائها، ولا يفرّط بشيء منها. مرّة طلبت عمّتي أن تستعير (المكحلة) النحاسيّة الصفراء لتكتحل، فأعطاها إيّاها جدّي بعد إلحاح، ولكنّها بعد أسبوع أعادتها له وقد

أضاعتْ غطاءها، فحلف جدّي من يومها ألّا يعير غرضاً من أغراض جدّتي، ولم يقبل من عمّتي مكحلة جديدة، هو يقول لعمّاتي: كلّ أغراض أمّكم لكم، ولكن استعملوها أمام عيني فقط. لَمْ أَرَ الدموع في عيني جدّي إلاّ في حالين، عندما يذكر جدّتي، وعندما يذكر الحروب. ولذلك لم نعد نذكرها له، وقد كشف عادتنا، فصار يلومنا كثيراً، قائلاً:

- «ما بالكم يا أولاد ؟ ألا تحبّون جدّتكم ؟ أم إنّكم نسيتموها ؟ صحيح أنّ كثيرين منكم لم يروها، ولكن ظننتُ أنّكم تحبّونها لأنّني حدّثتكم عنها كثيراً، ولأنّني أحبّها».

فنحلف له الأيمان أنّنا نحبّها، ونحفظ كلّ ما حكاه لنا عنها، ونذكّره ببعضه، فتفيض الدموع من عينيه الذابلتين، دموع صمت، جدّي حينما يبكي لا نسمع صوت بكائه،

نعرف بكاءه من دموعه فقط. ومع صمت دموعه نسكت جميعاً، ويبكي بعضنا، ونلتمّ حوله، ونمسح بمنديله الدموع الدافئة التي تسير ببطء على خدّيه. ثمّ يترحّم على جدّتي، ونردّد معه الدعاء بالرحمة لها.. وإذا كان الدمع كثيراً نعلم أنّ ذاك اليوم لن تكون لنا فيه حكايات من ذلك النوع الذي نعرفه، بل سيكون يوماً لحكاياته عن جدّتي.. آه يا جدّتي! كم تمنّيتُ رؤيتكِ لكثرة ما يصفك جدّي بالجمال والطهر والبراءة، بالكرم والمسارعة إلى معاونة نساء الحارة في أمورهم.. جدّي لا يرى مانعاً من أن يحكي لنا عن صبرها عليه.. ويتحوّل وجهه من الحزن إلى الفرح، ونشعر أنّه يحكي لنا عنها وكأنّها في الغرفة الأخرى، أو كأنّها ستطلّ علينا بعد قليل حاملة فنجان القهوة له، وقطع حلوى لنا.

أمّا حكايتها مع كرسي جدّي، فهي عجيبة غريبة. كانت جدّتي تخيط ثوباً لهذا الكرسي مرّة كلّ سنة، وثوب الكرسي مؤلّف من قطعتين، الأولى لمسند الظهر، وهي تشبه كيساً تُضَمّ فيه قائمتا الكرسي من أعلى، والثانية هي الأرضيّة. وتختار لون القماش أخضرَ غامقاً، وتزيّنه ببضع قطيفات، فيبدو الكرسي - كما يصفه جدّي - ذا هيبة ووقار.

لم يستطع جدّي أن يُبقي على الثوب الأخير من أثواب الكرسي، وهو ما يفتأ يذكّر عمّاتي بصنع واحدٍ جديد، ولكن لا يجد منهنّ من تستمع له. مرّة - منذ عيدين أو ثلاثة أعياد سابقة - قالت له أمّي:

- «أنا سأخيط لك ما تطلب».

فرح جدّي، ودعا لها بالخير. ولكنّ أمّي لم

تفعل، هي تقول تارة أنّها لم ترَ من نوع القماش، وتارة أخرى أنّها لا تعرف بدقّة ما هو المطلوب، ومرّة ثالثة أنّها مشغولة بتربيتنا. ولكنّني متأكّد أنّها لو أرادت أن تخيطه لأنجزته في يومين أو ثلاثة، ولكنّ صمت جدّي وعدم إلحاحه عليها يزيدها رغبة في التأخّر. ولا أستطيع أن أذكّرها، أخاف أن تقول لي «لا دخل لك أنت في شؤون الكبار يا ولد»، وقد قالتها لي قبل ذلك كثيراً.

كتاب جدّي

دخلتُ على جدّي وفي يدي ورقة نجاحي إلى الصف الرابع الابتدائي، قبّلتُ يده، فقبّلني، سلّمته الورقة، وضع نظّارتَهُ على عينيه.. قرأَ.. تأمَّلَ.. ثم ابتسمَ ابتسامةً مُشْرِقةً تُظْهِرُ الفرحَ الغامر الذي بَدا على وجهه؛ وقال لي بلهجته الوقورة: الآن أصبحتَ رجلاً... الآنَ بدأتَ تمشي في دروب العلم الحقيقيّ يا ولدي...

فرحتُ بعبارته كثيراً، أردتُ تذكيره من جديد بالكتاب، الذي يضعه على رفّ خاصّ

في غرفته، والذي وعدني أن أقرأ منه عندما أتقدّم في التعليم، ابتسم، وقال لي:

- هذا من حقّك، وأنا عند وعدي ولكن؟!

قلت له:

- يا جدّي أرحني من (لكنْ) هذه!... انظرْ إلى نتيجتي الرائعة، ألا أستحقّ أن تكرمني عليها؟! إنّ أكبر هدية تقدمها لي هي أن أقرأ في كتابكَ يا جدّي...

- ولماذا تريد القراءة في هذا الكتاب بالذات مع العلم أنّ بين يديك كتب كثيرة مُنوّعة؟

- أتريد الحقّ؟

- ومتى أردتُ غيره يا ولدي؟!

- لأنّي كلّما وجدْتُكَ تقرأ منه شيئاً رأيتُ

عليكَ علامات السرور والراحة، وأنا أريد أن أكسب شيئاً من الراحة والسرور، وأهرب قليلاً من هموم هذه الدنيا...

ضحك جدّي كثيراً على عبارة «هموم هذه الدنيا»، ثمّ رأيته يمسح وجهه بيده اليمنى، ويفكّر... يفكّر طويلاً...

عرفتُ بماذا يفكّر جدّي، لأنّني قلتُ له عبارة يقولها الكبار فقط، أمّي تمنعني من لفظها، لأنها عبارة أكبر من عمري بكثير، كما تقول لي... هم يظنونَ أنّنا بلا هموم لنا نحن الصغار، ونحن نظنّ أنّ هموم الكبار من صنع أيديهم، يستطيعون التخلّص منها متى شاؤوا... أليس من الهمّ أن لا نفعل ما نريد؟ وأن لا نفعل إلّا ما يعجبهم؟ أليس هذا همّاً حقيقياً؟!

خرج جدّي من تفكيره، ورفع يديه داعياً:

اللّهمّ خفّف الهموم عن أمّتي...

❁ ❁ ❁

قال جدّي:

- تستطيع أن تقرأ في الكتاب على مبدأ وشرط.
- أقبل بكلّ الشروط، وأسير على أي مبدأ تحدّده لي...
- أمّا المبدأ، فهو أن تقبل تصحيحاتي لقراءتكَ مهما كانت كثيرة ومتتابعة، فلن أَدَعَكَ تمرّ على غلط واحد دون أن أصححه لك...
- موافق يا جدّي.
- وأمّا الشرط، فهو واحد، أن تقف عند كلّ جملة تعجبك، وتعيد قراءتها ثلاث مرّات، لتشعرني أنّك تفهم ما تقرأ...

- بكلّ سرور يا جدّي!

- كلّ ذلك بدون أيّ نزق أو انفعال...

- تماماً يا جدّي!

- إذنْ، على بركة الله يا ولدي... غداً، بعد صلاة الجمعة، نجلس معاً ونقرأ ما شاء الله لنا أن نقرأ.

❁ ❁ ❁

لم يشأْ جدّي أن أقرأ الكتاب دون بعض الطلبات الخاصّة، فقد طلب منّي أن ألبس أفضل ما عندي من الثياب، وعطّرني بعطره الخاصّ، وعلّمني كيف أجلس على الأرض - متربعاً - عند القراءة... وإن أردتُ أن أغيرّ من جلستي فلا بدّ من أن أثني ركبتيّ أو إحديهما، ونصحني أن لا أُكثِرَ من الحركات عندما أقرأ، كي يبقى ذهني مفتوحاً...

شعرتُ أنّي في عالم جديد وأنا أشمّ رائحة عطر جدّي أينما تلفّتُّ... أحسستُ أنّ دنيا جديدة تفتحُ لي أبوابها... قلتُ في البداية إنّها مدرسة، ولكنّي وجدتُها أكبر...

أمسكتُ بالكتاب، وضعتُهُ على الأرض، وصوّبتُ نظري من فوقه... مدّ جدّي يديه، وأخذه منّي برفق، وقال لي: لِمَ لا تُجلِسُ الكتاب مجلسَهُ؟

ثمّ أتى بكرسيّ القراءة، وبسطه، بعد أن كان مطويّاً، ووضعه أمامي...

عندما أقرأ أمام معلّمي في المدرسة ينتابني شعور بالخوف، لا أعرف من أيّ شيء أخاف... أمّا الآن أمام جدّي فأشعر بأنّني بطل، جدّي يحبّ الأبطال الذين لا يتردّدون... وأنا لن أتردّد...

كان جدّي، في البداية، مسروراً من قراءتي، وعندما وجد أغلاطي تكثر مدّ يده إلى الكتاب وأغلقه، وقال لي: يكفي ما قرأناه اليوم...

ثمّ بسط جسده على الحصير، فلا بُدّ من قيلولة في يوم حارّ.

❁ ❁ ❁

مرّ شهران من الصيف وأنا أقرأ في كلّ يوم بضع صفحات من كتاب جدّي، أغلاطي تقلّ، صوتي يتحسّن، فهمي يتّسع... وحبّي للقراءة يزداد بشكل كبير...

كان أبي يراني مع جدّي وأنا أقرأ، فينظر إلينا بصمت، والبسمة مرسومة على شفتيه. مرّة أو مرّتين جلس معنا، بصمت واحترام، وحاول أن يتدخّل لتصحيح غلط بدر منّي، ثمّ لم يفعل لأنّ جدّي وضع سبّابته على فمه

مشيراً إليه بالسكوت.

أبي، في صغره، قرأ كثيراً من الكتاب أمام جدّي، وكلّ أعمامي قرؤوا منه، وعمّاتي أيضاً... وهم دائماً يتحدّثون عن صبر جدّي عليهم وسروره بهم.

لا أعرف لماذا يتصرّف والدي معنا – نحن أولاده – ومع أمّي وكأنّه لم يقرأْ منه شيئاً... لا أدري أين صارت أفكار الكتاب... على الأغلب غادرت رأسَهُ، وحلّ مكانها حسابات وأرقام وهموم... وسلّة كبيرة من المعاتبات والملاحظات على الناس جميعاً، ومن بينهم إخوته وأحب الناس إليه...

لم أستطع أن أخبّئ عن جدّي فكرتي:

- يا جدّي، لماذا نسي أبي وأعمامي أفكار الكتاب وحِكَمه؟

- سؤالك كبير يا ولدي... كبير... والدكَ لم ينسَ شيئاً، ولا أعمامك، فهذا الكتاب لا يُنسى... ولكن بعض الناس يظنّ أنّ ما في الحياة شيء، وما في الكتب شيء آخر.... وكل من يعاملهم أبوك بالمال والمتاع يظنّون ذلك... الناس - يا ولدي - يظنّون أنّهم يستطيعون أن يستعجلوا الخيرَ بأيديهم.

ثمّ صَمَتَ جدّي.... طال صمته، ثمّ قال: اترك لنفسكَ سؤالاً للمستقبل تكتشفه بنفسك... هل تريد من جدّك أن يجيبك على كلّ الأسئلة؟ كثير عليّ ذلك...

أبناء أعمامي وعمّاتي أصابتهم الغيرة منّي، جدّي لا يعطيني دراهم، ولا سكاكر... جدّي يَسْمعني، ومع ذلك فأنا محسود!

دعوتهم للقراءة والاستماع، بعضهم وافق،

وبعضهم ينتظر موافقة والديه...

صرنا أربعة أولاد نقرأ، وأنا أقدمهم في القراءة، ولستُ أكبرهم... علّمنا جدّي كيف يكون السكوت جميلاً، وكيف يكون الاستماع جميلاً، وكيف تكون القراءة متعة رائعة...

❁ ❁ ❁

رأى أبي اهتمامي بالكتاب، ازداد حبّه لي، صار يُجْلِسني قربه، بل يلصقني به وهو يضع يده اليمنى على كتفي كي يجذبني إليه أكثر، ويسألني عن الكتاب... وعن جدّي... ولكن، مع أوّل نداء من أمّي، أو مع أيّ طارق للباب... يبتعد عنّي، وعندما يعود إليّ ينسى ما كان يسألني عنه...

مرّة سألني والدي:

- كيف حال صديقك الكتاب؟

- لم أرَ أروع منه صديقاً!
- ولن ترى يا بنيّ!
- أبي... أريد أن تشتري لي كرّاسة كي أنقله بخطّ يدي.
- وبإشراف جدّك، على شرط أن لا تستعجل، قد تستغرق في نقله سنتين أو أكثر، ولكن المهمّ أن تنقله بعناية وبخطّ جميل، ودون أغلاط.

ثمّ سكت والدي، وراح يتأمّل، وكأنه يتذكّر كيف كانت صداقته مع هذا الكتاب عندما كان صغيراً، ثمّ تنفّس تنفّساً عميقاً، وقال لي:

- عمّك المغترب نسخ هذا الكتاب ذات يوم.
- بالتأكيد استمر أكثر من سنة!

- لا، بل ساعة...
- ساعة؟! كيف؟
- في البداية سمح له جدّك أن يأخذه معه إلى مغتربه، ولكنّه لم يرغب في ذلك... قال لِعَمِّكَ: هذا الكتاب يجب أن لا يغادر بيتنا. في إجازته التالية أحضر عمّك معه جهازاً صغيراً، وصوّر الكتاب كاملاً، وبعد عام أحضر معه مجلّداً هو صورة عن الكتاب تماماً... وصار يصحبه معه أينما حلّ... قال لي أخي: لم أرَ أحسن من هذا الكتاب صديقاً في غربتي.

ازدادت رغبتي في رؤية ذلك المجلّد، وهذا آخر الصيف، موعد زيارة عمّي لأبيه وأهله...

أوّل ما سعيتُ إليه أن أخبرتُ عمّي أنّني

أقرأ أمام جدّي بعض صفحات الكتاب... ثمّ استجمعتُ شجاعتي وطلبتُ منه أن يريني الصورة التي عنده.

رحّب عمّي، أمسكتُ المجلّد، فتحته: الخطّ نفسه... الألوان نفسها... حتّى تجاعيد الورق نفسها... أشياء قليلة اختلفت: الورق هنا أمتن، والرائحة... رائحة كتاب جدّي لا تشبهها رائحة... الأصابع التي قلّبت صفحات كتاب جدّي ما تزال آثارها وروائحها... وهذا غير موجود في مجلّد عمّي.

ضحك عمّي عندما رآني أقرّب مجلّده من أنفي، وقال لي: هذه التي تنقصنا في الغربة... رائحة البلاد.. رائحة الأهل والديار.

عمّي كانت أخلاقه أقرب إلى ما في الكتاب من حِكَم... يبدو لي أنّ عمّي لو عاش بيننا لكان

أقرب الناس شَبَهاً بجدّي... هل غربته جعلته يختلف عن بقيّة إخوته؟! هل يفهمه الناس في غربته على حقيقته؟! هل الناس في البلاد الغريبة عندهم أجداد كجدّي؟! في الصيف القادم سأسأل عمّي كل هذه الأسئلة وأكثر.

❁ ❁ ❁

انتهت عطلة الصيف، وأنا سعيد لأنّني قرأتُ أكثر من ثلاثين صفحة من كتاب جدّي... وكتبتُها أيضاً... وجدّي مسرور لأنّ أربعة من أحفاده التفّوا حوله لقراءة الكتاب. جدّي قال لي: تقدُّمُكَ في مدرستكَ يعني أنّك أَفَدْتَ من قراءة الكتاب.

وفي ساعة من ساعات الهدوء تسلّلتُ إلى نفس جدّي فحسبتُهُ يتساءل: ماذا لو كنتُ أعطيتُ أولادي ما أعطيه لأحفادي اليوم؟ اللّهمّ سامحني فما قصدتُ في تربيتهم إلّا

الخير، ولكن كانت تشغلني عنهم مشاغل الدنيا وهموم المال... مددتُ يدي إلى وجه جدّي، مسحتُ دموعه الصامتة، قبّلتُهُ في جبهته ووجنته ويديه، ثمّ وضعتُ رأسي في حضنه، ولم أتكلّم أيّ كلمة... وغفوتُ... مستسلماً وقد تسلّلتْ إليّ أحلامٌ جِدُّ سعيدة.

❁ ❁ ❁

عباءة جدّي

لدى جدّي عباءة واحدة يلبسها غالباً عندما يخرج من البيت أو عندما يأتيه ضيوف، أو في أيّام الأعياد والجُمَع.

وَرُغْمَ أنّ جدّي لا يخرج من البيت إلّا نادراً، ولكنّه يكاد لا يمرّ أسبوع دون أن نراه قد جلس وهو يضع على كتفيه عباءته، وكأنّما هي جزء من مكوّنات حياته. أمّا مكان تعليقها، فهو يعلّقها في خزانة خشبيّة عتيقة، ما تزال تحتفظ بمتانتها وبهائها.. وهي ذات

مفتاح كبير، يُصدِر صوتاً خاصّاً عند تدويره، أمّا لونها فهو بنّيّ مع خطوط وعروق تُظهِر أنّها من الخشب الطبيعي. هذه الخزانة موضوعة في صدر الغرفة الواسعة، غرفة جدّي. وكثيراً ما رغبْتُ في فتحها ، فهي تحتوي على نفائسَ مُدْهِشَةٍ من ذاك الزمان الذي سبق زمانَ جدّي أو عاش فيه طفولته وشبابه.

وأجمل ما نرى من ساعات جدّي وعباءته هو في يوم أحد أيّام الجمعة، عندما يريد الخروج إلى الصلاة، فإنه يكون قد اغتسل وهندم لحيته وشعره، ورمى عباءته على كتفيه، ثم وضع عِمامته، وأمسكَ بعصاه، ثم خرج، ونحن من ورائه، أو مَنْ يرغب من أحفاده، وكان غالباً ما يذهب إلى الجامع سيراً على قدميه، ونمشي نحن وراءه، وندخل

جميعاً الجامعَ دون أن يسبقنا إلّا قليلٌ من المصلّين، وغالباً لا يزيدون على العشرة.

يجلس جدّي في الصفّ الأوّل، ويجلس أكبرنا من أحفاده إلى جانبه، وكلّنا أمل في أن نفتح أيديَنا مع جدّي عندما يبدأ بدعائه بصوت خافت، ونحن نقول (آمين)، ولكن دون أن نسمع منه شيئاً، سوى بعض الكلمات التي ألفناها (يا الله.. اللّهمّ.. ربّي...)، ومع ذلك كنّا نفرحُ بقربنا من جدّي والالتصاق به، لِنُشعِرَهُ أنّنا معه في دعائه، ونحن مغتبطون.

لم يكن جدّي يحرص كثيراً على اصطحاب أولاده معه إلى الجامع، يبدو لأنّه ملّ منهم، فهم لا يخرجون إلّا متأخّرين، وفي أحيانٍ كثيرة لا يستمعون إلّا إلى أواخر الخطبة، وكنتُ أتمنّى أن نذهب مع أبي، ولكن كلّما قلتُ لأبي:

نحن ذاهبون، كان يردّ عليّ ببرود واضح: وفّقكم الله! سأتبعكم بعد قليل. فأقف قليلاً، ثمّ أقول: أتحبّ أن أنتظركَ يا أبي؟ فيقول: لا.. اذهب مع جدّكَ، وسألقاكم في الجامع.

قلتُ لجدّي ذات يوم:

- ألَا ما بالُ هذه العباءة تقيّدُكَ في بعض الأوقات؟

نظر جدّي إليّ مليّاً، ثمّ ابتسم وقال:

- بل هي تحرّرني يا ولدي.. تعيد إليّ توازني.. تعيد إليّ ثقتي بنفسي.. ومن دونها أشعر أنّ شيئاً ما ينقصني..

ثمّ أخذته نشوة من الاستطراد في الحديث معي، فتابع قائلاً:

- هذه العباءةُ - يا ولدي - سِتْري وسَنَدي.. وعندما تنزل عن كتفي

أحسّ بأنّ شيئاً ما ينقصني، ثمّ أتذكّرها، فأعتذرُ إليها، ثمّ أرتديها.. هذه العباءة صديقة عمري، ومن قبلُ صديقة أبي وجدّي.. نعم، جدّي.. هذه العباءة كانت لجدّي منذ زمن بعيد.. انظر إلى قماشها، إنّه متين، إنّه من صنع الأيدي الحنونة التي كانت تقضي أيّاماً في صناعة قطعة صغيرة من النسيج..

ثمّ سألني:

- أتدري ما هو عُمْر صحبتنا معاً؟

وطبعاً لم أُجِبْ ، لأنّني أريد من جدّي أن يستمرّ في حديثه الهادئ الرصين:

- منذ أكثر من أربعين سنة وأنا مع هذه العباءة، منذ مدّة بعيدة ونحن نلتقي

معاً كلّ أسبوع مرّة واحدة على الأقلّ، وأريدها كلّ يوم، ولكن حرصاً عليها من الاهتراء. وقد كانت جدّتُكَ تعتني بها وبي معاً، تنظّفها برفق شديد، وعندما يكون عندي موعد لضيوف، أو لخروج من البيت، كانت تقترب منّي وتضع العباءة على كتفي، ثمّ تشدّها من هذا الطرف وذاك، ثمّ تبتعد قليلاً عنّي وتنظر إلينا معاً - أنا والعباءة - وتقول: «يا سلام! الآنَ أنتَ سيّد الرجال». كنتُ أبتسم ، مخفياً غبطة عزيزة من هذه العباءة التي تفعل بي فعلها العجيب، رغم أنّني قد سمعتُ هذه العبارة مرّاتٍ كثيرة قبلاً. فعبارات الودّ الصادقة لها أثر محبّب لا

يوصف، إذا استقبلها الإنسان بصدق وصفاء.

لم يكن نظر جدّي يحيد عنّي، وعن وجهي خصوصاً، كنتُ أتلقّى حديث جدّي من فمه وعينيه وكلّ حواسّه.. وكنتُ أشرد بعض الشرود، وأنا أحلم بموقف لي مع أحد أحفادي في المستقبل، أحدّثه عن شيء من أشيائي، وكثيراً ما أتخيّل جدّي عندما كان صغيراً، ووقفته مع جدّه أو أبيه.

وأتنبّه من جديد لحديث جدّي.. وما أروعه من حديث!

- جدّتُكَ يا ولدي كانت ودوداً.. تحبُّ كلَّ الناس.. كلّ أهل الحارة يتهافتون إليها في الأفراح وفي الأحزان، أيّام السعة وحالات الهموم.. كانت تستمع إليهم..

لا تُجاريهم في الكلام إلّا قليلاً، لأنّها لم تكن تجيد الحديث مطوّلاً.. لم تكن تجيد سوى الدّعاء لهم في وجودهم وفي غيابهم وفي ظُلُمات الليالي.. أو تقديم ما هو في وسعِها تقديمه من طعام وأشياء أخرى.. وأحياناً كثيرة مالاً وذهباً.. وتنام وهي ناعمة البال مطمئنّة إلى حُسْنِ ما فعلتْ.

❁ ❁ ❁

إنّني اليوم وأنا في الصفّ الثامن من دراستي أفهم جدّي على نحو أفضل بكثير ممّا كنتُ أفهمه من قبل، جدّي عذب الحديث، يتكلّم ببطء واضح ليُفهِمَ سامعَهُ بشكل جيّد، وليس عندَ جدّي أيّ عِيّ في نطق الحروف أو الصوت رغم أنّ عمرَهُ يزيد على الستّين بسنوات.

كم أتذكّر تلك الأيّام عندما كنتُ أختبئ في عباءة جدّي.. كنت في سنّ الخامسة أو أصغر قليلاً، أنتظر وقوفه واضعاً عباءته على كَتِفَيْهِ لأذهبَ وأندسَّ تحتها، كان يحسّ بي، ويسكت، إلى أن أبدأ بحركة زائدة عن الحدّ، فيكشف العباءة ويمدّ يديه، يرفعني إليه ليقبّلني كثيراً، ثمّ يعيدني ويقول:

- أنتَ البرعم الأجمل من براعمي..

ثمّ يتحدّث عن صديقته العباءة ويقول:

- ليتكم تفهمون هذه الأشياء.. ليتكم تشعرون بالسعادة نفسها التي أشعر بها.. ولو لأوقات قليلة.. ليتكم تَدَعون هذا «التلفاز» الذي يمتصّ أوقاتكم امتصاصاً لا عهد لنا به، من غير

فائدة.. ما أروع الصفاء والتأمّل يا ولدي!!!

❁ ❁ ❁

ذات مرّة دخلتُ على جدّي، وهجمتُ على خزانته ، فتحتُها، إذْ كان المفتاح على بابها، وأخرجْتُ العباءة منها - بوجوده - ووضعتُها على كتفيَّ، ومشيتُ بها.. كدْتُ أتعثّر من طولها، ولكنْ تمالكتُ نفسي، ولففتُ العباءة بإحدى يديّ، ثمّ اقتربتُ من جدّي قليلاً.. وازددتُ قرباً منه حينما رأيته يبتسم ابتسامةً عريضة.. ووقفتُ أمامه على بعد خطوتين أو ثلاث..

نظر إليّ.. وقال لي:

- بركاتُكَ يا شيخي!!

ثمّ طلب منّي الجلوس أمامه، على أريكةٍ عالية بعض الشيء، وبدأ يتأمّلني كثيراً:

- أتعرف - يا بُنيّ -؟ لقد أعدْتَني إلى عشرات من السنين مضتْ.. أذكرُ ذلك جيداً، وأذكر أبي الذي طرح عليّ عباءته، كنتُ قصيراً مثلك، وربّما أقصر منك، وكان يريدني أن أصبح رجلاً على وجهِ السرعة.. حاول بعدها أن يأخذني إلى خيّاط ليخيط لي عباءة تناسب قامتي، ولكنه خجل كثيراً عندما قال له الخيّاط: هذا «الولد» لا يناسبه أن يلبس عباءة.. إنّه ما يزال طفلاً صغيراً.. ألا تعلم أيّها الحاجّ أنّ مَنْ يليق بهم أن يلبسوا العباءة هم الذين فوق الثلاثين أو الأربعين من عمرهم؟ عندها خجل أبي، وأمسك بيدي، وأسرعنا في الرجوع إلى البيت، كي لا يقول أحدٌ عنّا شيئاً. أمّا أنا

فأقول لك يا حفيدي: هذه العباءة لكَ إن شئتَ من الآنَ، وإن شئتَ عندما تصبحُ رجلاً، بعد سنواتٍ قليلة، ولكن عليكَ أن تحافظ عليها، كما حافظنا عليها أنا وأبي وجدّي.. جدّتُكَ - يا ولدي - كانت تغسلها برفق وحنان.. نعم حنان حقيقي لا تشوبه شائبة.. لأنها تعلم أنّ هذه العباءة حسّاسة، فلا تريد أن ترهقها، ولا تريد أن تتلفها...

❁ ❁ ❁

لم أشأ أن أسأل جدّي عن رأيه في أنواع الثياب في هذه الأيّام ، ولكنه كان لا يعيب شيئاً ممّا نلبسه إلاّ تلك الألبسة التي كانت تُكتَبُ عليها عبارات بلغات أخرى، فكان له رأي أنّ الثياب يجب أن تكون خالية من أيّ نوعٍ من الكتابة سواءٌ أكانت بلغات أخرى، أو

حتّى باللغة العربية، ورأيه هذا مستمدّ من احترام الكلمات التي ستُكتَبُ، والمواقف الشتّى التي يقفُها الإنسان في أوقات يومه، من جلوس ووقوف واضطجاع ودخول الحمّام... ولكنه ما ذمّ لنا أيّ نوعٍ من أنواع الثياب الحالية، ولا أنكر على أحدٍ ارتداءَ لون محدّد أو زيٍّ معيّن.

❁ ❁ ❁

أذكر أنّني منذ مدّة قريبة مرضْتُ، واعتنى بي أبي وأمّي كثيراً، وكنتُ أنام نوماً طويلاً، ثمّ أصحو قليلاً.. وفي إحدى صحواتي قلتُ لهما بصوتٍ عالٍ:

- أريد جدّي.. دعوني أذهب إليه في غرفته..

في البداية منعاني، ثمّ عندما رأيا إصراري تركاني أذهب إليه.. دخلتُ عليه فرأيته -

كعادته - جالساً على الأرض، قبّلتُ يده وخدّه، قبّلني.. واندسسْتُ إلى جواره وأنا ألتصق به. وغفوتُ، بل نمتُ، ولم أصحُ إلّا بعد ساعات، فرأيتُني تحت عباءةِ جدّي، ورأيتُ جدّي إلى جانبي يمسح بلطف جبيني المبلّل من تعرّقي، ويدعولي بالشفاء.

قلتُ له:

- شكراً لكَ يا جدّي.. لماذا العباءة وأنا مريض وهذا تعرّقي وهذه رائحة مرضي؟

ابتسم وقال:

- بل أنتَ أغلى من كلّ الأشياء التي عندي يا ولدي.. أنتَ الودّ الصافي المخبّأ للمستقبل إن شاء الله. شرط أنْ تواصل تعليمك.

لم أعرف كيف أشكر لجدّي عباراته اللطيفة سوى أن نظرتُ إليه طويلاً، ثمّ ابتسمنا معاً، ثمّ أطرقتُ برأسي وأنا سعيد جدّاً.. بل حَسِبْتُ أنّني بدأتُ أشفى من مرضي.. وأنّني في هذه الليلة سأحلم أحلاماً جميلة جداً.. وسأحكيها لجدّي في الصباح.. وسيفسّرها لي، ويستطرد في التفسير كعادته.. إنّه جدّي.. حبيبي الغالي...

دخل أبي وأمّي علينا - أنا وجدّي - وطلبا منّي أن أعود إلى غرفتي، لكي لا أصيب جدّي بالعدوى، وأشفقا عليه منّي، ثمّ أمسكني أبي وشدّني إليه، فلم أرَ إلّا يد جدي تنجذب نحو يد أبي وهو يقول:

- دعه عندي الليلة، إنّه لن يصيبني بأيّ عدوى من مرضه، إنّ رائحته شفاء لي.. لا بدّ أنّه سيبرأ من مرضه إن شاء

الله.. سأسقيه من منقوع عشبة عندي، وأقرأ له ما تيسّر من كلام الله سبحانه.. دعه يا ولدي...

فلم أجد أبي إلّا وهو يقبّلُ يد جدّي، ويقول هو وأمّي: «تصبحون على خير».. فما كان من جدّي إلّا أن أثنى على والدي بالدُّعاءِ، وما كان من أبي إلّا أن يقبلَ بالأمرِ الواقعِ، ثمّ يخرج مع والدتي مُغادِرَين إلى غرفتهما...

أنا وجدّي

جدّي - غالباً - لا يسهر، تراه يخلو إلى نفسه قبل النوم وكأنّه في حالة مناجاة طويلة جدّاً، ما تلبث أن تتّصل بالنوم، إنّه يذهب باتّزان ووقار إلى فراشه، وشيئاً فشيئاً يُغمض عينيه، حتّى إذا أَطْبَقَ جَفْنَيهِ تَحْسَبُ أنّه قد غطّ في نوم عميق، ولكنْ أيّ حركة غير اعتيادية، أو أيّ رائحة لمخلوق تدخل غرفتَهُ توقظه.. وكأنّه لم يدخل في ساحة النوم بعد..

وأنا أدرس الثانوية هذا العام أشعر برغبة كبيرة في أن أكون إلى جانب جدّي.. إنّني أرى في نَفَسِهِ بَرَكة.. وفي دُعائِهِ لي ولأولاده وأحفادِهِ بَرَكة.. وفي قراءَتِه للقرآن الكريم آناء الليل وأطراف النهار بَرَكة...

منذُ أن كنتُ طفلاً صغيراً وأنا أحبّ النوم قرب جدّي، في الصيف لا يجد حرجاً، بل أراه مرحّباً.. ولذلك أقضي أكثر أيام الصيف في غرفته.. أمّا في الشتاء، ولا سيّما الأيام الباردة منه فإنّني كنتُ أحسّ برغبة فاترة منه، ولم أفهم سرّ فتور رغبته إلّا عندما صرْتُ في هذا العمر.. إنّه يخشى عليّ من البرد، ويخاف أن يمنعه بعضُ نومه العميق من الانتباه إليّ خَشيةَ تسلّل البرد إلى جسمي عندما ينكشف اللِّحافُ عن بَدَني..

ويكاد ينتهي نوم جدّي مع تباشير الفجر، وعندما أحسّ باستيقاظه في بعض الأحيان، كنتُ أرقبه وهو يقوم من فراشه بهدوء.. يطوي لحافه، ويرتّب سريره، وكأنّه يستعدّ ليومٍ جديد.. ثمّ يجلس إلى تأمّلاته.. وكم كنتُ أتمنّى أن أدخل ملكوت ذلك التأمّل لعلّي أقبس منه بعض النور.. كنتُ أفضّل أن لا أقترب منه كثيراً وهو في تأمّلاته، خشية أن أقطع عليه طمأنينته ومتعته، ولكنّه عندما عرفني أكثر ووثق من مودّتي الصافية له وهدوئي ورغبتي في معرفة المزيد عنه، لم يمانع أن أقتربَ منه أكثر، وفي الوقت نفسه ما كان ليوقظني فجراً عندما يراني مستغرقاً في النوم، لأنّه كثيراً ما يراني أستيقظ من تلقاء نفسي، وأقيم الصلاة، ثم أعود إلى النوم.

❁ ❁ ❁

كانت أجمل الأيام تلك التي سمح لي جدّي فيها أن أعيش معه في غرفته، لأحضّر لامتحان الثانوية، نصحني بأن لا أُكثِر من السهر، وأن أصحو باكراً لأبدأ الدّراسة، ولكنّه لم يجبرْني على ذلك..

في الأيّام الأولى كنتُ أسهر، ولكنْ كنتُ أشعر بحرجٍ شديد بيني وبين نفسي، جدّي نائم وأنا أسهر تحت مصباح الغرفة بإضاءته القوية؟؟

ثم وبالتدريج صرْتُ أشعر بالنعاس عندما يشعر جدّي به، وصرْتُ أصحو قبل أن يصحوَ، لعلّي أهيّءُ له بعضَ ما يحتاجه للوضوء ثمّ الصلاة.

كانت أكبر متعة أحصل عليها عندما أستمعُ إلى جدّي وهو يتلو القرآن الكريم بعد

صلاة الفجر.. يا الله ما كان أحلى صوته الذي يمتزج مع المعاني الخالدة مع الموسيقى الساحرة لكلمات القرآن وعباراته!!! والحقّ يُقال أنّ جدّي لم يكن يتعمّد أن يقرأ القرآن وأنا معه، بل كانت جلسته مع هذا الكتاب الكريم يوميّة، فهو يقرأ ما يشاء الله له أن يقرأ، ربّما صفحة وبعض صفحة، وربّما تتجاوز القراءة عشرين صفحة. وقلّما حصل ذلك.

لم أكن أقاطع جدّي عندما أستمع إليه وهو يقرأ القرآن، بل كنتُ أفكّر في بعض الأسئلة عن ما يقرأ. وكنتُ أنتظر إلى أن يحين موعد السؤال.. أنا أعرف تماماً متى يمكن أن أسأل جدّي ومتى لا يمكن أن أسأله. لقد فهمتُهُ وخبرتُهُ، ولذلك لا أريد أن يشعر بأيّ لون من ألوان الإزعاج منّي.. وعندما كنتُ

أسأله كانت إجابته متنوّعة على حسب الحال. فأحياناً يقول لي: أمهلني يا ولدي.. وأمهله، وربّما امتدّ صبري له أسبوعاً أو أكثر.. وربّما أجابني بِسَعَةٍ واستفاضة.. وربّما كانت إجابته تأتي سريعة ولكن شافية أو شبه شافية. وعلى العموم لم يكن جدّي لِيَتَحَرّجَ من الاعتذار عن الإجابة إنْ لم يكنْ له سعةُ اطّلاع عليها.

كنتُ في بعض الأحيان أسعى إلى قراءة بعض الكتب كنوعٍ من الإجابة على سؤال لم يُجبني عليه جدّي.. كان يبتسم ويقول لي: بوركْتَ.. وفي كثير من الأحيان يطلب منّي الاستزادة في القراءة، أو يحيلني إلى كتاب آخر لأنّه لم يجد في الكتاب الذي اقتبسْتُ منه ما يُشبعُ نهمَ المطّلع. وفي أحيان كثيرة كان يطلب منّي أن أقرأ له صفحات من كتاب أعجبه عنوانه.

أمّا أحلى ساعات الاستيقاظ فكانت في الصيف، وذلك حينما كنّا نخرج معاً إلى باحةِ الدار، بعد أن نكون قد توضّأْنا، ثمّ نصلّي الصبح جماعةً.. صلاةً جهريّةً توقظُ فيَّ مشاعرَ خبيئةً لا أعرف كنهها.. لا أعرف منها سوى ما توحيه إليَّ من عظمة الخالق وتجلّيه على عبادِهِ في ساعات مطالع الفجر.

في بعض الأحيان القليلة كان جدّي يطلب منّي أن أصلّي به إماماً، ويصلّي هو مقتدياً بي.. في البداية كنتُ أجيبه وأنا في خجل واضح، وأقول له: يا جدّي.. لا يجوز.. فيقول لي: بل يجوز.. اليوم أنا في وعكةٍ صحّيّة، وأخاف أن أنسى بعض ما أقرأ في الصلاة، وأنتَ قارئٌ بارعٌ وربّما تفوقني في الحفظ والترتيل. فأقيمُ الصلاةَ، ثمّ أبدأ، فأقرأ ما تيسّر لي من قِصار السور.. وعندما أنتهي كان يُعاتبني جدّي قائلاً:

لِمَ هذا الاختصار؟ فأقول: خشيتُ عليكَ يا جدّي أن أرهقَك.. فيقول: الصلاةُ لا تُرهقُ يا ولدي..

في إحدى المرّات قُلْتُ لجدّي قبل أن نبدأ بالصلاة: أحبُّ اليوم أن أقرأَ سورةَ المؤمنين كاملةً في الركعة الأولى، وسورة تبارك في الركعة الثانية. قال لي: على بركةِ الله.. ولم أكدْ أبدأ في إقامة الصلاة حتى سمعْتُ حركةً متسارعة في أرض الدار، إنّه أبي وبعض أعمامي، وقد توضّؤوا وهمّوا بالصلاةِ معنا.. حاولتُ الاعتذار عن الإمامةِ بحركةٍ مفهومة، ولكنّ أحد أعمامي لوَّحَ لي بيده أن ابدأ.. وبدأْتُ وقد تملّكني شعور نسيتُ فيه الدار وَمَنْ معي.. لكأنّني صرتُ في ملكوتِ الله العليّ العظيم.. وشعرتُ أنّ صوتي لا يصدر منّي.. بل يصدر من ملائكةٍ تحفُّني من كلِّ جهة.. وتنطق

معي ما أقرأ.. ثمّ وجدْتُ نفسي في الركعة الثانية في دعاء القنوت أدعو الله تعالى من كلّ قلبي.. وطال بي الدُّعاء.. ولم أنهِهِ إلى أن سمعْتُ شهقاتٍ ممّن هم خلفي..

قال لي جدّي: أراكَ سبقْتَني في كلّ شيء.. وها أنتَ ذا....

ولم أدعْهُ يكمل كلامَهُ، خشيةَ أن يصيبني الغرور. فقلتُ له: يا جدّي هذا بعض ما علّمْتَني إيّاه.. أنا مِنْكَ يا جدّي.. أنا بضعة منكَ كما أبي.. والله يا جدّي لم أقصد الإطالة.. لم أجدْ نفسي إلّا وأنا في سعةٍ من الزمان والمكان.. لم أجد نفسي قريباً من الله ساعةً كما كنتُ عليه اليوم..

ثمّ استدركْتُ: أتدري لماذا يا جدّي؟ لأنّني عندما كنتُ أراقبُكَ في صِغَري وأنتَ تصلّي

كنتُ أتصوّر أنَّكَ عندما كنتَ تصلّي كنتَ تدخل في عالمٍ جميل فسيح لا تحدّه حدود.. صحيح أنّني لم أكن أسمع منكَ شيئاً.. ولكنّني كنتُ أقرأُ في تعابير وجهِكَ السعادة والطمأنينةَ والإيمان العميق.. ولذلك تعلّمْتُ منكَ ذلك دون أن تدري.. بل دونَ أن أدري أنا أيضاً.

وتعرضُ ابتسامَتَهُ ويقول: لقد أراني الله تعالى بَعْضَ جنّتِهِ فيكَ.. وأرجو أن يُريكَ الجنَّتَين إن شاء الله.

❁ ❁ ❁

اقتربَ الامتحانُ، صرْتُ مشغولَ البال.. وصارَ جدّي مشغولَ البال أكثر منّي.. ولكنّه كان حريصاً على أن يُظهِرَ غير ما يُبطنُ من أمر همّه وقلقه عليّ حينما رأى ما أبذل من جهد.. بل أصبح يدعوني إلى الطمأنينة والاستسلام..

لأنّ ما يقدّره الله هو الخير، مهما كانت النتيجة.

وَلَكَم انشرح صدرُ جدّي حينما ظهرت النتيجة.. دمعتان صامتتان التمَعَتا في عينيه فَرَحاً.. بعد أن قبّلْتُهُ: لقد نجحْتُ يا جدّي.. لقد نجحْتُ..

ولم أسمع سوى الفرح يتفجّر من نفسٍ صامتة.. آهِ ما أجملَ الفرح الصامت!!!

وصيّة جدّي

لم يكن من عادتي أن أفتح خِزانةَ جدّي إلّا حينما يَطْلُبُ منّي هو ذلك، وبحضوره، ويكون ذلك بحضوره. ولكنّني هٰذه المرّة أفتحها بدافعٍ خفيٍّ لا أدري ما هو.. أهوَ الفضول؟ أهوَ النداء الخفيّ؟ أهو شيء آخر؟؟؟ المهمّ أنّني أقدمْتُ على ذلك لأوّل مرّة، بعد أن صار عمري يزيد على العشرين سنة.. وأستطيع أن أقول إنّ هٰذه السنين كلّها قد انقضت بصحبتِي له... بل بمودّةٍ صافية غلب عليها التسامح منه، وغلب الفضول

عليّ معه. المهمّ أنّني قد فتحتُ خِزانَتَهُ في غيابه هٰذه المرّة، فرأيتُ حقيبةً صغيرةً من الجلد بنّيّةَ اللون، يبدو جلدُها عتيقاً، ولها خيط جلديّ غليظ طويل بطول ذراعَينِ أو أكثر، ملفوف عليها بإحكام.. حاولْتُ أن أفتحَها، بل هممْتُ بفتحِها، ولكنّني أرجعْتُها إلى مكانها، خشيةَ أن ينزعجَ جدي من فِعلتي هٰذه.. خصوصاً أنّه لم يكن يخفي عنّي شيئاً من خصوصيّاتِهِ. ولكنّني قرّرْتُ أن أسأله عمّا فيها، لعلّه يخبرني خبرها، ولماذا يحتفظ بها وهي عتيقة تكاد لا تساوي شيئاً.

وفي اليوم التالي تعمّدْتُ أن أصطنع العفويّة والبراءة، قفزْتُ إلى الخزانةِ عندما طلب منّي جدّي غرضاً منها، فأخرجْتُ تلك الحقيبة، مع أشياء أخرى صغيرة، ونظرتُ إليه بطرف عيني، لعلّي أرى عنده بعض الفضول لإخراجها، فلم أرَها قد لفتتْ له بالاً، أمسكْتُها بيد، وأمسكتُ الغرض

الذي طلبه منّي باليد الأخرى، فلم يُثِرْ ذلك فيه أيّ انتباه.. عندها صار لا بدّ من السؤال عنها:

- جدّي.. ما هٰذه؟

- هٰذه؟ هٰذه يا جدّي قصّتُها قصّة...

ثمّ التفتَ إليّ يريد الغرض الذي طلبه قبل أن أنسيه إيّاه...

أعطيته ما طلب، وبعد مدّة وجيزة سألتُهُ ثانية:

- ما قصّة هٰذه الحقيبة الصغيرة العتيقة؟

- هذا الحِرْزُ كان رفيقي إلى البيت العتيق!

- هٰذه القطعة الجلديّة يمكن أن تكون رفيقة؟

ابتسم وقال:

- هاتِها...

عندها قلتُ في نفسي: لقد حقّقْتُ غرضي.. إنّه سيكشف لي أمرها...

ناولته إيّاها، فأخذها، وبدأ يفلّ الخيط الجلديّ بعناية فائقة، ثمّ شمّها، وكأنّه يستعذب رائحتَها، ثمّ أعاد الخيط إلى الحالة التي كان عليها، ووضعَها إلى جانبه، وبدأ بالشرود.. ولم أكن أدري هل هو شرود أم تذكّر أم تأمّل؛ أم هي الثلاثة معاً... ولاذَ بالصمتِ طويلاً...

اعتدْتُ أن أُحضّرَ الشايَ لجدّي عندما أرى أنْ لا رغبة عنده للحديث، ولا سيّما الشاي المُنكّه بالقرنفلِ أو المسك أو الزهورات البلدية..

عُدْتُ إلى الجلوس إلى جانبه بكلّ هدوء، ومعي الشاي وأدواته.

ابتسمَ، ونظر إلى الكأسين، وسحب نَفَساً عميقاً، ونظر إليّ نظرةَ رضىً، تُخفي وراءَها ذكرياتٍ مفعمةً بالحنين إلى الماضي... وقال: هٰذا الحِرْزُ يا ولدي كان رفيقي في رحلة الحجّ التي كانت منذ ما يقربُ من ربع قرنٍ من الزمان.. كنتُ أضعُ فيه الدراهمَ وجوازَي السَّفَر لي ولجدَّتِكَ،

وبعض الوثائق الأخرى المهمّة.. وأعلّقه ما بين كتفي الأيمن والطرف الأيسر من خاصرتي وأنا ألبس ثوب الإحرام.. وكان لا يُضايقني في شيء.. بل كان يُشعِرني بالاطمئنان، وأنا لا أفكّر إلّا في الخالقِ عزَّ وَجَلَّ..

وشعرتُ أنّ جدّي يُغالِبَ دمعةً تريدُ أن تنزل.. ولكنّهُ لم يستطعْ أن يغلبَها.. فسكتَ.. ثمّ مسحَ عينيه.. وعاد إلى الحديث بصوتٍ خفيضٍ: هٰذا الحِرْزُ يا ولدي حملَ الأمانةَ في سفري القصير، ولذلك أريدُ أن أحمِّلَهُ وأحمِّلَكَ إيّاها في سفري القادم الطويل..

ارتبْتُ في ما يقصدُ جدّي.. ولم أشأْ أن أسألَهُ عن شيء، لِما وجدْتُ فيه من شوقٍ كان دفيناً فخرج.. وتمنَّيْتُ أن لا أكونَ قد تسببْتُ في ضيقٍ له.

وبعد ساعة من الزمان، أخرجَ الحقيبة التي أسماها حِرْزاً، وقال لي: أرجوكَ يا بُنَيَّ أن لا

تفتَحَها ما دامَ جدُّكَ حيّاً، بل بعد موتي، وفي اليوم الثالث مساءً، أحضِرْها، وادعُ أباكَ وجميع أعمامِكَ وعمّاتِكَ، وقُل لهم إنّ لديكَ أمانةً من جدِّكَ تريدُ لهم أن يعرفوها.. ثمّ اطلب منهم قراءة الفاتحة على روحي، وبعدها سَلِّمِ الحِرْزَ لأكبر أعمامِكَ، وقُلْ له أن يفتَحَه، ثمّ ليقرأَ ما فيه على الحضور جميعاً. فإن لم يفعلْ فأعطِهِ للعمِّ الذي يصغره، وهٰكذا...

❁ ❁ ❁

بعد أقلّ من سنة، وبينما كنتُ في قاعة المحاضرات في كلّيّتي، جاءتني رسالة تقول: تعالَ ودِّعْ جَدَّكَ...

ماذا؟ جدّي؟؟ ما بِهِ؟؟؟ كيف أودِّعُهُ؟ ومتى قرَّرَ السَّفَر؟ في الصباح كنّا معاً...

خرجْتُ بعد انتهاء المحاضرة، وهرعتُ إلى البيت، وإذا بي ألقى جدّي في رمقِهِ الأخير:

- يا بُنَيّ.. اذكرني في ما أَحْسَنْتُ.. وانسَ أيَّ إساءةٍ نالتكَ أو نالتْ غيرَكَ منّي.. أحبِبْ أُمَّكَ وأباك.. وإخوتَكَ.. وجميع أبناء قومِكَ.. وعليكَ بالعلمِ والصبرِ.. عِشْ بالتّسامُحِ مع النّاسِ.. إيّاكَ أن تكونَ قاسيّاً.. العلمَ.. العلمَ.. العلـ.....

كان كأسُ الماء في يدي.. وكنتُ أُشْرِبُ جدّي منه على دفعات.. وكان يهزُّ يدي بيده المرتعشة، ويقول: الأمانةَ.. الأمانةَ.. ثمّ نطق الشهادتينِ.. وبعدها صار يقول بصوت خافت: الله.. الله.. الله..... إلى أنْ توقّف الصوت.. ثمّ ضمَّ شَفَتَيهِ، وقد انقلبت عيناه إلى الخلف. ثمّ انحنى رأسُهُ جهةَ اليمين...

لم أكنْ وحدي.. ولم أشأْ أن أعرف معنى ما حدث.. ولم أجد نفسي إلّا وقد انسحبْتُ من أمامه والدموع تطفر من عينيَّ.. بينما بعض أولاده يبكي، وربمّا بعضهم يشهق في البكاء...

بعد أكثر من ساعة استسلمتُ إلى أنّ جدّي قد توفّاه الله.. فصرتُ أطلب من الله الرحمةَ له.. وأقرأ ما تيسّر لي من القرآنِ الكريم...

❁ ❁ ❁

في مساء اليوم الثالث، فعلْتُ ما أوصاني به جدّي رحمه الله.. سلَّمْتُ الحِرْزَ إلى عمّي، الذي قَبَّلَهُ، ودعا لوالده بالرحمة، ثمّ فتحَهُ لِيُخْرِجَ ما في الحِرْز بهدوء، فرأى فيه ورقةً، عليها ختم جدّي.. أخرجَها وصار يقرأ منها:

بسم الله الرحمن الرحيم

هٰذا عهدُ عبدٍ من عبادِ اللهِ في الدنيا.. الحمد لله على ما أعطىٰ، والشكر لله على ما أخذ.. (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، اللهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدْ)، (الذي خَلَقَ الموتَ والحياةَ ليبلوَكُمْ أيُّكُمْ أحسنُ عملاً) اللّهمَّ أحمدُكَ على كلّ ما أعطيتَني، وأرجو أن تتغمّدني برحمتِكَ.

أوصيكم يا أولادي بالتقوى، فهي عماد الحياة المستقيمة الشريفة.

وأوصيكم بالتسامح، فهو أساس الطمأنينة.

وأوصيكم بأولادكم خيراً وبالمسلمين جميعاً.

أحبّوا بعضَكم بعضاً.. وانسوا أيَّ خلافٍ يمكن أن ينشأ بينكم. ولا تُحاسبوا مَنْ لا ينسى، بل سامحوه دوماً ومطلقاً، عندها لا بدّ أن تزول الخلافات بينكم.

لقد تركْتُ بين أيديكم بعض المال، فأنفقوا الثلث على الفقراء والمحتاجين وطلبةِ العلم، وتوزّعوا بينكم بالتساوي ما يتبقّى. لا تبخسوا أخواتِكُمُ البنات شيئاً ممّا تركتُ من متاعِ الدنيا، فلهنَّ حقٌّ كما لكم حقٌّ.

وصيّتي لكم أن لا تبيعوا هٰذه الدار، فقيمتُها المادّيّة لا تَعُدُّ شيئاً، ولن تغنيَ أحدكم عن شيء. بل اجعلوها ملاذاً لكم كلّما ضاقت بكم السُّبُل.

واجعلوها مرتعاً لأولادكم وأحفادكم، ضيفوا فيها ابنَ السبيل، وَمَنْ جاءَ إلى بلادكم للعلمِ، بالمجّان.

بارك الله بكم ولكم، وبارك الله بأولادكم ولهم، والحمد لله أولاً وآخراً.

اذكروني واذكروا أمَّكُم بالخير، وبدعاءِ حَسَن، وبقراءةِ ما يتيسَّرُ من القرآنِ الكريم. وسامحونا في بعضِ قسوتِنا عليكم عندما كنتُم صِغاراً، فَوَاللهِ ما كنّا نقسو إلّا لنفعِكُمْ وحُسْنِ تربيتِكُمْ.

❁ ❁ ❁

عندما وُزِّعَتْ أغراضُ جدّي، أخذ عمي الكبير عباءتَهُ، وأخذ آخرون أشياء أخرى، وطلبْتُ من والدي أن تكون حصّتُنا الكتاب، وقلْتُ لأبي: يكفينا الكتابُ وحدَهُ. فَلَمْ يُمانعْ أحدٌ. والحمدُ لله أنّ دار جدّي بقيت مفتوحةً، وإنّني تابعتُ دراستي الجامعيّة كلّها فيها...

❁ ❁ ❁

لستُ أدري لماذا تعزَّزَ عندي الشعور بالمسؤولية تجاه نفسي بعد موت جدّي.. ولكن شيئاً ما بقي عامراً غامراً نفسي، ألا وهو ذكرياتي مع جدّي في كلّ موقف بل في كلّ لحظة. إنّه الرجلُ العظيمُ الذي لا يُنسى...

صدر للمؤلف

- **جحا رائد الظرفاء**، دار الشرق العربي – بيروت، ١٩٩١م.
- **رحيل قارّة شعرية** (ما كُتِبَ عن نزار قبّاني بعد وفاته)، (بالاشتراك)، دار المعارف، حمص، ١٩٩٨م.
- **الخنساء**: سيرة تاريخية أدبية، دار المعارف – حمص، ١٩٩٩م.
- **عودةُ جحا**، دار المعارف، حمص، ٢٠٠١م.
- **عوالم قصصية** (بالاشتراك)، مجموعة قصصية لكتّاب من الوطن العربي، دار المعارف، حمص، ٢٠٠٢.
- **العودة المبكّرة**، مجموعة قصصية، دار الوعي العربي، حلب، ٢٠٠٥م. الطبعة الثانية ٢٠١٢م.
- **النجاح في العمل والدراسة**، (دراسة)، دار كتابنا، المنصورية، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م، الطبعة الثانية ٢٠٠٨م.
- **إبداع (١)**، (بالاشتراك)، كتاب المهرجان الأدبي الأوّل للمعاقين، جمعية شمس الغد للمعاقين، حلب، ٢٠٠٧.
- **اللغة العربية: هموم وطموحات** (دراسة) – دار الوعي العربي، حلب.
- **الأبواب المفتوحة**، مجموعة قصصية، دار الوعي العربي، حلب، ٢٠١٠م.

سيرة ذاتية

محمّد بن يوسف كرزون

- مواليد حلب – سورية آذار/مارس ١٩٥٥م. رجب ١٣٧٤ هـ.
- إجازة في اللغة العربية وآدابها من كلية الآداب بجامعة حلب.
- يكتب في كثير من المجلّات والصحف العربيّة منذ عام ١٩٨١م.
- شارك في عدد كبير من المهرجانات والندوات الثقافية والأدبية.
- صدر له أكثر من عشرة كتب، وله عدّة أعمال مخطوطة تنتظر الطبع.

المحتويات

العنوان	الصفحة
الإهداء	٥
🕮 كرسي جدّي	٧
🕮 كتاب جدّي	٢٣
🕮 عباءة جدّي	٣٩
🕮 أنا وجدّي	٥٥
🕮 وصيّة جدّي	٦٧
🕮 صدر للمؤلّف	٧٨
سيرة ذاتية للمؤلّف	٧٩